

مأتم عراقي

مات منذ سنتين رجل عراقي في مدريد.

كنت قد سمعت بالخبر وأنا في محل طارق (عراقي آخر) في وسط المدينة، عندما مررت للسلام وشراء أغراض من محله لصديقتي الإسبانية التي اكتشفت أن محل طارق لبيع الجملة، يبيع بضائعه بنصف سعرها في المحلات الأخرى. فكانت ما أن تتذكر شيئاً حتى تبعث بي. كنت أغلب المرات أرفض بشدة بعد أن قطعت علاقتي بالعراقيين وأخبار العراق. لم يعد هناك ما يهمني في بلدي، لا صديق ولا أهل، فهل أحن إلى تراب معفر بالدم والبارود فارقه منذ أكثر من عشرين عاماً؟ بالطبع كل أعذاري لا تقنع صديقتي، وعدم أرضائها، يعني ما يعنيه، حرمان من الفراش وزعل لا أول له ولا آخر قد ينتهي بطردي من جنتها، وهذا يعني شهور حرمان طويلة حتى أعثر على من ترضى برفقتي. لذا تعلمت أخيراً ألا أناقش طلباتها وأمضي مثل خروف مقاد من حبله حتى منصة ذبحه. لا تظنوا أنني أبالغ في الوصف، فالحقيقة أن التعذيب أفضل لي من الوصول بقدمي حتى محل طارق.

الواقع أن المعضلة ليست في طارق ولا في الآخرين، فأنا اعترف أنني لم أعد أطيق لغو الآخرين، خاصة أبناء بلدي. ما أن يروني حتى يبدأون بفتق خاصرتهم الحكائية ويرمونني بكل ما عرفوه وسمعوه وقرأوه أو شاهدوه. مرة اعترفت أمام مجموعة من العراقيين أنني لا يهمني سماع أي شيء عن البلاد، كما أنني لا أتابع

ما يدور في العراق. فقد نبذت التلفزيون منذ فترة طويلة، ليست القنوات العراقية والعربية على الستلايت، بل جهاز التلفزيون نفسه لم أعد أقرب منه في بيت صديقتي وكنت قد تخلصت منه ومن الراديو في غرفتي المتواضعة التي استأجرتها مع عائلة تايلندية لا أفاقه منهم حرفاً ولا هم يهتمون بوجودي سوى في يوم دفع الأيجار الشهري. ولكن أن تعترف لهم، كنت أتصور أنهم سيعتقونني ويدركون عدم اهتمامي بكل هذا. لكن الحال انعكس وبدأت ما أن التقى بأحدهم حتى يفاجئني بكل تفاصيل الشهور الماضية، مفصلاً رأيه وما سمعه وقراه وشاهده. كل واحد منهم (لا يعطي فنتك) كما يقال عندنا، أي لا يمنح متفلساً للتساؤل أو إبداء الرأي أو الهروب حتى.

لأكن صادقاً في وصف لقائني الأخير هذا بطارق. لم أره على عهده، كما كان منشغلاً بمكالمة هاتفية مع شخص عراقي آخر من اللهجة التي كان يتكلم بها، ثم بدا حزيناً وساهماً. ما أن انتهى حتى رأيتَه يسلم عليّ بعجالة ثم يأمر عماله ببعض الأشغال ويخبرهم أنه سيغيب حتى العصر لأنه سيمضي خارج مدريد، مضيفاً أنه سيحضر عملية دفن عراقي في مقبرة البلدية. وقبل أن يخرج ناداني (هي ساعتين وتفض، ومن الله الثواب)، قلت له ولكن من هو هذا العراقي، أنا لا أعرفه؟ وقف بوجهي وقال: الله يخليك يا صديقي، هو الموت له صاحب.. كلها ساعتين نوذي الواجب ونرجع، لا تقل لي عندك شغل، ترى اعرف سوالفك؟!.. لم تعد احتجاجاتي ولا قسمني بأن صديقتي تنتظرني في البيت، فكان أن أمسكني من يدي ومضى بي حتى سيارته، هناك وجدت سيارات أخرى لعراقيين ينتظرونه، دفعني لأرافقه في سيارته، شغل كاسيت قرآن ولم يسمح لي بأي تساؤل سوى التتصت والإستماع لصوت عبدالباسط عبدالصمد وهو يتلو سورة يوسف الذي أكله الذئب ظناً أو حقيقة.

أفضل شيء في الموت، أو عملية المشاركة في الدفن هذه، أنني لم أسمع أي كلام ولا تعليقات ولا تساؤلات من طارق ولا من أي عراقي آخر سلم علي قبل أن يمضوا بسياراتهم الشخصية على أمل أن نلتقي جميعنا في مدخل مقبرة (المودينا) المدريدية.

عندما وصلنا بعد أكثر من ساعة، طلب مني طارق أن أنزل وأنتظره قرب الإستعلامات حتى يركن السيارة في الكراج الغاص بالسيارات. جلست عند دكة قرب شجرة كانت بمثابة علامة للمدخل، دخنت سيكارة أحمله معي عندما أخرج كي أعاقب نفسي بعدم تدخين الغليون الذي لا ينزل من فمي. حاولت التفكير طوال الوقت بمن يكون هذا العراقي، وحاولت مع نفسي أن أصنع له تاريخاً طالما أن طارق لم يحدثني عنه، كما أن تساؤلي عنه لم يحظ بأي إجابة سوى أنه عراقي وصل قبل أشهر عن طريق المغرب في قوارب الموت، الذي أهداه موتاً مؤكداً، لأنه مرض فجأة ما أن حطت قدماه أرضاً أسبانية ولم يجدوا علاجاً له، وأشاروا في أوراق وفاته بأنه أصيب بنوبة تشنج غريبة لم يألفوا مثلها إطلاقاً، سببت له تخشياً جسدياً وتحنطاً دون العثور على أية مواد غريبة في معدته. مات وحيداً في غرفة في مستشفى مدردي. أخبرني أيضاً أن الوحيد الذي صلى على روحه، قس عجوز كان هناك بالمصادفة وظنه مسيحياً، يبدو أن الممرضة أخبرت القس بأن الرجل عراقي ومسلم أيضاً، لكن القس كما حكوا لهم (أقصد لطارق نقلاً عن آخرين، وبدوره أخبرني بذلك) لم يجب الممرضة بشيء، بل هز رأسه وبقي بصلاته خاشعاً لخمس دقائق قبل أن يريت على صدر العراقي ويمضي خارجاً.

طال انتظاري ولم ألمح أثراً لطارق ولا أي عراقي آخر. فكرت أن أمضي للبحث عنه في الكراج، ولكنني بتجوالي فيه لم أر أياً منهم ولا عثرت على سيارة واحدة لهم، فكان أن عدت من جديد لمدخل المقبرة وقررت الانتظار خمس دقائق. لم يأت أحد، فكرت أن أعود للبيت وحدي ولكن موظف الإستعلامات في المقبرة

أخبرني أنه عليّ المشي لربع ساعة أو أكثر حتى أقرب محطة وحيدة، وهناك عليّ أن أنتظر باص المساء. قررت إذا الدخول والبحث عنهم في المقبرة، طلبت معلومات من الموظف، وعندما دقق أوراق دفن (واردات الموت لهذا اليوم) أشار إلى الجهة المقصودة وترك بيدي مخططاً بإشارات وأسهم ليساعدني الوصول في السليم لهدي ودون ضياع في عالم القبور المتراسة.

كأي تلميذ نجيب اتبعت تعليمات الخريطة حتى وصلت النقطة المشار لها، وهناك عثرت على الجمع الذي فاق أكثر من مائة شخص. أقتربت وجمدت حركتي احتراماً لطقوس الموت، ولكن من زاوية متاحة لي حاولت تصفح الوجوه المحيطة بي لأرى أين يكون طارق أو أي من العراقيين الآخرين. ولكن زاويتي كانت ضيقة لم تتح لي سوى متابعة حركات الدقّان وتأوهات الأقرب مني. كانت تتد بين حين وآخر تنهات نسوية مما جعلني بشك من أنني عند قبر العراقي لأنني لم أعلم بحضور امرأة معنا. خمنت أنها لا بد وأن تكون زوجته أو ابنته أو امرأة أحدهم. لكن مكاني في الخلف وعدم قدرتي على رؤية الوجوه والتمعن بها جعلني خانساً في مكاني. ركزت كل طاقتي على التأكد من حركات الدقّان والتوصل لمعرفة إلى أية مرحلة من الطقوس قد وصل. لم يكن لي من مخرج حتى الإنتهاء من المأتم كاملاً لكي أستطيع العثور على طارق ومرافقته في العودة. في الوقت نفسه كنت أشعر بحضور آخرين من الخلف، بعضهم يقف أبعد مني بمتراً أو أقل. بدرجات واصوات متنافرة سمعت صوت رجل يأمرنا بالخشوع وبدأت صلاته مردداً جملة الأولى باللاتينية وبعد لحظة صمت أخرى سمعته يردد صلات مريم العذراء والجمع من ورائه. في تلك اللحظة وحسب عرفت أنني لم أكن عند النقطة الصائبة، والقبر الذي أنا بقربه ليس بقبر العراقي، والجمع المحيط بي لا يعرفون عن العراق أكثر من معرفتهم بالعربية.

حسبت وأنا أتابع العملية كاملة متأملاً العثور على فرصة للترجع والهرب، ولكنني بعد فترة التفات لأراقب عملية انسلالي بأنني في الواقع كنت وسط الحشد تماماً ولا مجال للخروج دون أن أضايق الجميع وأثير انتباههم، فقررت الإستمرار حتى النهاية. مع مرور الوقت كنت أشعر بتدافع الناس من خلفي وكلهم يرغب بالإقتراب أكثر، بينما آخرون قد اتخذوا مكاناً قصبياً لهم وصمتوا مثلي في انتظار التالي. بينما كنت أتابع ما اعتقدت انها حركات الدفان أو أحد مساعديه، سمعت من ناحية كتفي الأيمن أحدهم يقول (البقاء لله)، صاح بها بأعلى صوته بإسبانية لا غبار عليها. بعد صمت لفترة، أعاد الرجل جملته بصوت أعلى. حينذاك التفت لأرى وجه صاحب الجملة. لم أتعرف عليه. بعد حين صرخ بصوت اعتقدت انه قد خرج من مكبرة صوت لأن الجميع قد التفت أما ليرى مصدر الصوت أو ليؤنبوه بالنظرة الصارمة. حينذاك وحسب لمحت أكثر الوجوه الحزينة ولم أعرف أي واحد منهم. لكن بعد ذلك لم يعد الرجل الذي على يميني إلى الصراخ بل خنع قربي حتى أنني لو كنت في موقف آخر كنت سأظن بأنه يرغب باحتضاني.

بصوت أقرب للهمس سألتني: رجاء، هل هنا ماتم السيد تشيمو؟

قلت له: الحقيقة انني لا أعرف اسمه، ولكنني لا أعتقد بان اسمه تشيمو فقد سمعت القس يردد اسماً آخر.

زفر الرجل في أذني وخرجت كلماته ممطوطة: يا للكارثة!

- عذراً؟

- لا شيء، فقط ألعن ساعة حضوري، هذا هو المأتم الثالث الذي أحضره، دون نجاح بأن أصل لغايتي.. لا بد أنهم قد دفنوا السيد تشيمو منذ فترة طويلة، أعتقد أنني أخطأت بمجيئي وحدي:

طمأنته قائلاً: لا تظن أنك الوحيد، انا كذلك هنا بالخطأ، جئت لحضور دفن

رجل عراقي ويبدو أنني في مأتم آخر ليس لي علاقة به!

- آه انت واحد منهم... رأيت أصحابك قبل ربع ساعة، هناك في الجانب الآخر وشاركتهم الدفن.

- إذأ انتهوا من الدفن؟

- أعتقد ذلك.. هل تريد أن أفودك لقبره، أعرف الطريق؟

- لا.. لا أعتقد أنني أرغب بذلك، سأستمر مع هذا الميت الذي لا أعرفه.

ثم سكتنا. فكرت أن الرجل الذي على يميني سيتركني ويمضي بحاله، لكنه بقي صامتاً جوارى. سمعت من الوسط صلوات القس ودعاءه ووصل لسمعي تنهدات ونحيب بالكاد يتعالى شيئاً فشيئاً، لولا أنني شعرت بالرجل جوارى يدفعني للأمام والحشد الذي من خلفنا يتحرك باتجاه القبر. مضيت معهم بصف نسير كرتل عسكري. ما أن وصلت حتى وجدته قرب النعش الممدد في الحفرة والمغطى ببعض الأزهار وحففات تراب منهارة فوقه. بحركة لا إرداية انحنيت وقبضت على حفنة تراب ورميت بها على الصندوق وبقيت للحظة مراقباً الخشب اللامع للنعش وامتدت نظراتي للصف المقابل الذي انتشح بالسواد وتميزت من بينهم المرأة التي اعتقدت أنها كانت تبكي منذ لحظات لأنها كانت تراقبني بعينين دامعتين ومندليها بيدها. شعرت بلكمة قلبي ولم أستطع السيطرة على قدمي لكي انهض فساعدني الرجل الذي جاء من خلفي. تقدمت وقبلت السيدة واحتضنت البقية ومشيت بعيداً عنهم لأنني في تلك اللحظة وحسب شرقت بغصة لم أتوقعها وبدأت الدموع تنهمر على وجهي دون أن يكون لي قوة على كظمها ولا معرفة لتعليل لها. بينما كان هواء المقبرة يلطم وجهي مجففاً دموعي، كانت قدماي قد جابت القبور كلها قبل أن تجد طريق الخروج والمضي مشياً حتى أقرب محطة باص والهرب من هناك.

ما إن وصلت البيت (بيت صديقتي وليس غرفتي في الدار التايلندي)، وقبل أن أسمع تنهداتها التي ستجرتني للفرش كعادتها، أو تساؤلاتها عن البضاعة التي أرسلتني لشراؤها، دخلت الصالة وأغلقت بابها عليّ وتمددت في الأريكة ورحت في

نوم عميق لم أحس فيه على أي صوت. نهضت مع الفجر، لم يكن خيط ضوء قد بان بعد. دخنت وشربت قح قهوة. لم يكن لي قدرة على متابعة أية فكرة، فرحت أنتظر متابعاً السماء من النافذة وهي تبدل ألوانها كحرباء في صحراء. بعد قليل فتحت جهاز الكمبيوتر لأتلهى بتصفح الأنترنت قليلاً لخشيتي من أن تدهمني الأفكار نفسها التي أخرجتني باكياً من المقبرة. دخلت بريدي الإلكتروني ووجدت بانتظاري من ضمن رسائل أخرى وإعلانات ودعايات، رسالة من صاحبي الشاعر المصري أحمد يمانى، يخبرني فيها بأنه مر اليوم بتجربة غريبة عن الموت، ليس هنا مجال لذكرها وسيقص علي حكايتها ما أن يراني، وفي الوقت نفسه يرسل لي قصيدة يطلب رأيي فيها كتبها من وحي الحادثة التي يؤجل روايتها لي (وبعد أن احتسى كأس نبيذ من القنينة التي جلبتها له من شمال اسبانيا في سفرة أخيرة) يقول.. والقصيدة بعنوان (الجنابة) وهي التالية:

مات تشيمو هذا الصباح.
تشيمو ليس صديقي. لكنه مات.
كان يتحدث بلا انقطاع كمن يسدّد ديناً قديماً للكلمات
التي على وشك أن تهجره.
غدا سألبس معطفي الأسود وأمضي إلى الجنابة
وعندما أعود إلى البيت سأبتسم لنفسي.

اليوم مات تشيمو،
أحد معارفي،
وها أنا لم أعد غريباً في هذه البلاد.